(٣)

الكل أب والكل آب
في إنسان الأبوة والإياب
إنسان الله

حديث الجمعة

٨ شعبان ١٣٨٢ هـ - ٤ يناير ١٩٦٣ م

أشهد أن لا إله إلا الله، لا نحيط بشيء من علمه إلا بما شاء، وأشهد أن محمدا رسول الله أولى بالمؤمنين من أنفسهم، يمشي في الناس بنوره، يقوم ويتقلب في الساجدين، يتكاثر بمعناه عبدا وحقا من الله، قدوة للناس أجمعين، وأسوة للصادقين المتواصين، عطاءً للمفتقرين، أمة من الصالحين، وجها لله رب العالمين، وجها لله عنت له الوجوه، سجودا للحي القيوم، ووجها له في العابدين، به لربهم يشهدون، وللرفيق الأعلى ينظرون، ولله في أنفسهم يتعبدون فيوحدون، ويتوحدون، يشهدون لا إله إلا الله، ويقومون لا إله إلا الله، وينعمون لا إله إلا الله، ويصبرون لا إله إلا الله، حتى يكشف عنهم الغطاء، ويرفع عنهم البلاء، يوم يصيبون في الابتلاء، بصفاء نفوسهم، وشهادة وحدانية إلههم وربهم ورسولهم الذي أعطى كل شيء خلقه، فتخلق الناس، في معادنهم، في جاهليتهم، وفي إسلامهم، في غفلتهم، وفي يقظتهم، حتى إذا ما استوفوا تواجدهم في معدن من معادنهم، انتقلوا إلى صورة أخرى من معادن لهم، في أي صورة ما شاء ركبهم، وفي أي معدن ما شاء أوجدهم، وفي أي عالم ما شاء بدأهم، وفي أي صورة ما شاء صورهم، أعطاهم خلقهم، ثم هداهم فعلهم فعلمهم، وما علمهم إلا أن كشف الغطاء عنهم لهم عن معانيهم، في مواضعهم، وفي معالمهم، وفي معادنهم، وفي معارجهم. إن ما علمهم كان دينا لهم، وإن ما هم به، وإن ما هو أنهم، كان وجودهم وما أوجدهم، فكان الدين ما كشف لهم، وكان العلم معلومهم عنهم، فما فرق بين العلم والدين إلا الجاهلون، وما فرق بين الدين والعلم إلا الفاسقون، فالدين والعلم والاجتماع، إنما هي مسميات لأمر واحد، ولشأن واحد، ولحق واحد من أمر الإنسان، فالعلم اسم للدين، والدين اسم للعلم، كما أن الإنسان اسم لله،

كما أن الله اسم للإنسان، فالله والإنسان اسمان لأمر واحد، ولحق واحد، ولوجود واحد، ولعلم واحد، علما على معلوم واحد.

أما الحقيقة فلها شأن آخر، الإنسان بحقه وخلقه عنها صدر، والعلم والدين أو الدين والعلم بها عُلم، وبها عُرف، والوجود والكينونة فيها تواجد، وبغيرها لا تواجد له، ولا وجود له. العوالم في افتقار لها لتتواجد، ولتثمر في وجودها، ولتحتفظ بوجودها، هو الذي يمسك السموات والأرض أن تزولا، وهو في السماء إله على ما أقام من أمره، وهو في الأرض إله على ما أقام من أمره، له الأمر، وله الحكم، وهو على كل شيء قدير، سواء في الأرض، وسواء في السماء.

في السماء يقوم أمره، وحكمه، وعلمه، ووجوده، وكتابه، وحقه لأهلها، على ما وعد أهل الأرض أن يكونوا يوما من أهلها، فيعلمون ما جهلوا، وينقطعون عن ماديتهم، ويجهلون ما علموا، في السماء رزقكم وما توعدون، حياة السماء، حياة الروح، حياة الملأ الأعلى.

إن مولد أهل الأرض في عوالم السماء ولدان مخلدون (لا يدخل الجنة عجوز)[1]، (لا يدخل ملكوت السموات إلا من وُلِد مرتين)[2]، وما خلقكم، وبعثكم، إلا كنفس واحدة، ألهمها فجورها وتقواها، قد أفلح من زكاها، وقد خاب من دساها، ويحذركم الله نفسه، وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون. اقتلوا أنفسكم يتوب عليكم، اقتلوها في عزلتها وردوها لمن تواجد بها.

إن الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى جعل الإيمان به في الإيمان بالنفس منه، جعل الإيمان برحمته في الإيمان بالنفس في عملها. إن الذي لا يؤمن في ثمرة عمله، وفائدة عمله، وحقي عمله، إنما هو مزعزع الإيمان في ربه. الله خلقكم وما تعملون. إن الذي أنت من عمله يقوم بفعله في عملك، فإن لم ترَه الفاعل في فعلك فلا رؤية لفعله، وإن غابت عنك رؤية فعله غابت عنك رؤية ذاته، وإن غابت عنك رؤية ذاته غابت عنك رؤية نفسك منه، وإن غابت رؤية نفسك منه غابت عنك رؤيته. إن الذي عرَّفك أنه قائم على كل نفس قدس نفسك، وخلد نفسك، ورفع في الخافقين ذكرك. إن الذي عرفك أنه أقرب إليك من حبل الوريد أوجدك لنفسه، وصنعك على عينه، وعبدك لوجهه، وحوطك لكرسيه، ونشرك لعرشه، واستوى على عرشه لمجده مجدا لك، أنت محدث ذكرك لذكره من قديم ذكره لعوالمه بمذكوره من خلقه، صنعها قديما لك، ويصنعها جديدا بك لما هو منه منك من الحق، على ما أنت من حقك من قديم، على ما قام قديم حقك من الأقدم في موصوف فعل له لا بدء له، في قائم وجود لا بدء لوجوده من موجوده، بموجده في سبق وجود، من سبق وجود، على ما كان، هو قائم عامل، وعلى ما هو قائم عامل يبقى قائما بدائم فعله، على ما قام وفعل في قديمه وأزله، قائما فاعلا في جديده وأبده، أنت معاني البدء بخلقك وحقك فيه له تعالى جد ربنا فيه، ما اتخذ صاحبة ولا ولدا.

الإنسان بجديده للإنسان بقديمه عبد لرب لا صاحبة ولا ولد. إن الذي كان أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم ما قامت علاقة المؤمن به وهو يمتد بنوره فيه يقوم ويتقلب بالسجود لربه في نفوس آبقة عن أحضانه، ما اتخذ في قيام علاقته برحمة الله فيه قاسما معطيا، قسمَه قسم الله، وعطاؤه عطاء الله ما تكاثر في الناس بنوره، وهو الكوثر بنور الله وبقدرته، ما فعل ذلك عن صاحبة ولا ولد. جاء في مجيئه الحق، أنزل عليه النور، تخلله قديم الإنسان جديدا للإنسان، محدثا في البنيان، غير محدث في العنوان، ما تجدده الحق عن صاحبة ولا ولد. ما قال له الحق قل جاء الحق وزهق الباطل إلا بعد أن وجده يتيما عن قريب أبوتيه ومادي نشأتيه، فآواه القديم إليه أما وأبا له، على ما عبر بالأب والأم عن معناه في صلته في ظاهر آدم لأبعاضه، منزها عن الأبوة والأمومة لخلقه، الخلق فيه، والخلق منه، والخلق له، لا أبناءً، ولا أجزاءً بل هم منه وجه معناه لذات إطلاقه، فإن علاقتهم به ألصق من علاقة الابن بأبيه، والأب بولده. إن الابن وقد خرج من أبيه فنمى ونمى حتى سواه رجلا لا يستطيع أن يدخل ويعود إلى ظهر أبيه، أو إلى بطن أمه، ولكن العبد لله، ولكن خلق الله، إنما هم لله وإليه يرجعون. إنهم إلى من خرجوا منه وتواجدوا به يوما يعودون، وفي أحضانه يدخلون، وإلى حضرته يؤوبون في أحسن تقويم نشأوا، وهم يوم له يذكرون وأنفسهم له يعبدون إلى حضرته يؤوبون، وإلى البيت المرفوع من البيت الموضوع إلى ربهم يرجعون، وجوها ناضرة بنور ربها لوجهه ناظرة بلطيف عينه لها.

إذا كان الله قد تنزه عن وصف الوالد مع الإنسان فما تنزه بهذا بعدا عن الإنسان، ولكن زيادة قرب من الإنسان لأنه جعل من الإنسان عليه عنوانا، عند عينه من الإنسان (ما ظهرت في شيء مثل ظهوري في الإنسان)[٣]، وما ظهرت لشيء مثل ظهوري للإنسان.

جاء الإسلام منزها الله عن المباعدة للوجود، منزها الله عن الغيبة عن الشهود، منزها الله عن أن يحاط به في المشهود، عرَّف الشهود وجها له، وعرَّف الغيب سعة له وإطلاقا له عن التقدير، وعرف الوحدانية وصفا له ووصفا لخلقه، وصفا لذاته ووصفا لعباده، يتوحد عباده يوم يؤلف بين قلوبهم فيتوحدوه، والوحدانية لجمعهم يشهدون، فعن وحدانية الوجود يعلمون، يوم يدركون عنها لهم فيمن على أنفسهم في وحدانيتهم يقيسون، وقد أعطوا من كل شيء سببا فيتبعون سببا حتى تكل بهم الأسباب، ولا ينقطع بهم الإياب إلى قديم حقهم وقديم المعروف بربهم، فينعكسون إلى أنفسهم وإلى قائم ربهم بهم وجديدهم به، على ما يدركون دوام جديدهم على عين قديمهم إليهم، حتى يكل العقل في مسيرهم، ويعجزوا عن اللحاق بجديدهم، فيتلاقى عند وجودهم وفيهم وبإدراكهم، حافة الأزل في نهايته عندهم، وبداية الأبد في بداية بهم، فيرجعون البصر إلى أنفسهم بعد كرتين من

تعقب أمرهم، وبذلك يستيقظون ويعكسون أبصارهم في بصائرهم فيشهدون حقهم، ما كذبتهم أفئدتهم ما يعلمون يوم يعلمون، وما أخطأهم إدراكهم عن ربهم به يقومون، وفيه يسيرون، فوق الزمن يتواجدون يوم يدركون.

يشهدون القادم من الأيام عين السبق من أمسهم بالأيام، فعلى حاضرهم يحرصون، وإلى قلوبهم يتجهون، وعقولهم يوقظون، ونفوسهم يزكون، واسم الله لهم يذكرون، يجلون صدأ القلوب، ويتناسون ما مضى من الذنوب، ويصلحون ما قام من العيوب، لا يأبهون بابتلاء الكروب، ولا ينبتّون بابتلاء رحمته بما يصيبهم في موقوت الحياة من نعم الدنيا، فالدنيا تجري في أيديهم يملكونها، ويصرفونها، ويبذلونها، ولا تجري في قلوبهم فيعبدونها، أولئك هم عباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا لا اختيالا، ولا افتخارا، ولا كبرياءً، ولا عزوفا، يألفون ويؤلفون، أحواض رحمته في الأرض يقومون، تحيا بهم كل أرض ينزلون بها، فهم أمطار السماء للأرض ببقاعها، وتنير بهم كل أرض من ظلامها، فهم شموس نوره لأرجائها. كل ذلك جاءت به الأديان، وجاء به الهداة، وجاء به المرشدون، وقام الناس فيه ردحا من الزمن، كلما تجدد لهم وقام بينهم مجدد له، ثم ما لبثوا أن ارتدوا على أعقابهم، وما ضروا إلا أنفسهم. بدأ الإسلام في كل بداية له غريبا عليهم، وانتهى في كل نهاية له مستغربا منهم، فإذا ما بدأ بعد انتهاء كان الغريب بينهم والمستغرب عندهم، وها نحن في هذا العصر يتجدد بدؤه، ويشهد انتهاؤه، فلا إلى ما نهى عنه الناس ينتهون، ولا إلى ما بشر به الناس يستبشرون.

هم في دوام يستعجلون بالسيئة قبل الحسنة وإن خلت من قبلهم المثلات، ويستعجلون بالحسنة وهم غارقون في السيئات عنها لا يقلعون، حتى لا يجعلوا للحسنة فرصة بينهم بها تقوم فلها يقيمون، ولكنهم عن الحق يعمهون، وفي أنفسهم وبين جوانحهم، وأقرب إليهم من حبل الوريد، قائما على أنفسهم وبهم محيط، ومن ورائهم بهم ظاهر، لا يتفكرون ولا إلى وجوه الحق بهم كدرة أو نضرة ينظرون. إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا.

إن شهود الحق في حرية وأمان الكافر بالحق فيه أبرز وأقوى عند من يعقل من شهود الحق في المؤمن به عند من يعرفه. وإن في جحود الكافر للحق في المؤمن آية الله يوم يعمى الإنسان عن الحق في نفسه، فما الظلام إلا حجبه، وما حجبه إلا عوالم المادة، وما النور إلا حجبه، وما حجبه إلا عوالم النور وعوالم الروح، أما هويته، أما هو، أما علوي ذاته، أما معروف معناه، أما جلاله، أما عظمته، فقد تنزه عن الحجب، وتنزه عن الحدوث، وتنزه عن البدايات، وتنزه عن النهايات، لا يعلمه إلا هو، ولا يقومه إلا هو، وما كان للإنسان فيه شرف إلا أنه إلى هذا يكون، وبهذا هو كائن، وفيه كان، لا يجد أمره على

الإنسان، ولا ينفصل حقه عن الإنسان، ولا يحرمه في مآله الإنسان، ولا يفتقده في حاله الإنسان، وما من غيره تواجد في قديم الإنسان، وبذلك كان الإنسان في الله عين الرحمن وعين الله.

يتواجده الله بعد أن يبتليه يوم لنفسه يصطفيه، يفنى في الله، ويبقى بالله، ولا يفنى الله فيه، ولا يبقى الله به، ولكنه هو الذي في الله يفنى، وهو الذي في الله يبقى، فوُصف البقاء للإنسان، ويتنزه عنه الله، ولكن يتصف به العنوان وهو الإنسان. فوصف البقاء للباقي فيه احتمال أن لا يبقى، وهذا ما لا يليق ولا محل لأن يتصف به الله.

إن الإنسان يفنى عن معناه إلى معنى الله، وإن الإنسان لا يبقى بمعناه يوم يبقى، ولكن بمعنى الله يبقى. إنه يفقد الاسم فيحيا المسمى، إنه يبقى المسمى، ويبقى المذكور، فيصير الذكر، فيشهد أن لا إله إلا الله، ويقوم لا إله إلا الله، ويُشهد لا إله إلا الله، ويقيم لا إله إلا الله، فيعلم لا إله إلا الله، ويُعلم لا إله إلا الله. ذلك هو الإنسان، وكان في هذا المعنى عبد الله ورسول الله والحق من الله، فصلى عليه الله، وطلب من الناس أن يصلوا عليه تخلقا بخلق مولاه. اتخذه قبلة لجديد معناه بخلقه ومجلاه، أقرب إليهم من حبل الوريد، قائما على كل نفس، فما صلى عليه منهم إلا إياه، وإنه بتخلقه بخلق ربه أمر أن يصلي بدوره عليهم، ويتخذ منهم قبلة لتكاثره بمعناه، ويصبر نفسه مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه لتكون صلاته سكنا لهم، فيشهدونه بلطيفه من نوره بعينه فيهم لمرادهم فيه، وبذلك يعرفون الله في أنفسهم، وبذلك يعرف الله في نفسه لنفسه في خلقه. إن الله يبحث عن عبده، كما يبحث العبد عن ربه. ما جعل لمحمد الخلد إلا بوصف العبد للخالد. به صار العبد حقا مع وصف العبد له.

اللهم يا من لا إله إلا هو، ولا غيبة له، ولا شريك له، اللهم أشهدنا وحدانيتك في فنائنا عنا إلى قيامنا بك، وقيامك بنا لنا، وقوم فيك سبيلنا برحمتك، وأعلِ همنا بإرادتك، وعبدنا لنفسك على ما أردت، واصنعنا على عينك بين يدي رحمتك، اللهم عاملنا بعفوك، وقنا من شرور أنفسنا وشرور الأشرار من خلقك.

اللهم إنا عرفناك الغني، وعرفنانا الفقراء، اللهم آونا إلى غناك، وقنا شر الافتقار لأنفسنا. اللهم اجعل من عبدك ورسولك لنا قدوة، ولنا فيه أسوة، وآونا إليه على ما آويته إلى ربه، وآويت ربه إلى ربه وآويت الأرباب إلى ألوهيتك بوحدانيتك، وآويت كل آله بك إليك، وآويت كل مربوب منك إلى ربه فيك. اللهم لا تجعلنا في جهل بك عنك في أنفسنا حتى لا نعمهك في أنفسنا. اللهم لا تطغي نفوسنا بما علمت، وبما أعززت، وبما أكرمت، وبما وهبت، حتى لا نتطاول إلى عظمتك في لانهائي تعاليك. اغفر لنا وتب علينا.

أضواء على الطريق

(لقد كافحت لأجل أن يكون لديكم معرفة أكثر عن أنفسكم، وحاولت أن أعلمكم مسئولياتكم حتى يمكنكم أن تعلموا أن الحق يصحبه مسئولية تطبيقه في الخدمة. لقد حاولت لأعلمكم قوانين مملكة أعلى وحياة أعظم. لقد علمتكم لتنظروا إلى ما وراء نصوص الطقوس الدينية حتى تصلوا إلى النواة الحقيقية لكل دين. وهي أن تقدموا الخدمة لمن يحتاجون إليها حتى يجدوا المعرفة الثمينة التي تنشر السعادة بين كل البشرية). من هدي السيد (سلفربرش)

مصادر التوثيق والتحقيق

١ حديث شريف: "أتت عجوزٌ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال لها صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: لا يدخلُ الجنَّةَ عجوزٌ فبكت، فقال: إنَّك لستِ بعجوزٍ يومئذٍ قال اللهُ تعالَى {إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا}. المصدر: تخريج الإحياء للعراقي. كما أخرجه الترمذي في ((الشمائل المحمدية)) باختلاف يسير.

٢ إشارة إلى كلمات السيد المسيح عليه السلام: "الحق الحق أقول لك: ما من أحد يمكنه أن يرى ملكوت الله إلا إذا وُلِد ثانية." (يوحنا ٣: ٣)

٣ مقولة صوفية تتناغم مع تكريم الله للإنسان.